

عين جالوت والقضاء على القوى العظمى الجزء الأول

الكاتب: راغب السرجاني



عندما نتحدث عن عین جالوت التي سقط فيها جيش التتار، فإننا نتحدث عن موقعة بالفعل غيرت خريطة العالم، ورفعت كابوساً من أكبر الكوابيس التي مرت بها الأمة الإسلامية وغير الإسلامية.. العالم كله كان قد عانى معاناة شديدة من كارثة كادت تقضي على كل صور ومظاهر الحضارة في العالم، لولا موقعة عین جالوت التي ردت للناس الأمة والأمان في العالم كله.

ظهور التتار.. وحال الأمة

قبل أن نتحدث عن عین جالوت لا بد أولاً أن نعرف من هم التتار الذين سقطوا في الموقعة.. التتار دولة ظهرت على حدود الصين في منغوليا سنة 603هـ، وأنشأ هذه الدولة أحد أكبر سفاحي مجرمي العالم جنكيز خان، كان شخصية دموية إلى أقصى درجات التخييل، وكان عنده قدرة كبيرة على القيادة والتجميع، فجمع أعداداً هائلة من التتار، وفي غضون عشر سنوات تقريباً استطاع أن يضم كل منغوليا التي ظهر فيها، وكل الصين وكوريا وتايلاند وكمبوديا، كل ذلك دولة واحدة أصبح رئيسها جنكيز خان، الذي بدأ بعد ذلك يتطلع إلى ما بعدها، وكانت المملكة الخوارزمية - وهي جزء من الممالك الإسلامية، وهي الآن كازاخستان وأوزبكستان وباكستان وأفغانستان - ملاصقة له، وبدأ يغزو تلك البلاد واستطاع بالفعل أن يجتاح العالم الإسلامي اجتياجاً غير متخييل، لدرجة أنه في سنة 617هـ استطاعت جيوشه أن تحتل العالم الإسلامي من غرب الصين إلى شرق العراق، وتلك مساحة لا تخيل من الأرض والثقافة السكانية العالية.. وسبحان الله جيوشه كانت في منتهى القوة والعنف والإرهاب !!

وهذا يظهر لنا الوضع الذي كان عليه المسلمين؛ ضعف شديد.. فرقة وبعد المسؤولين عن الدين.. وتمسك المسلمين بالدنيا.. وانفصال الحكم عن المحكومين.. أمور وأمراض كثيرة أدت لهذا الهوان الذي وصلت إليه الأمة، وبالتالي اجتاحت جيوش التتار كل هذه المساحات. والttار دخلوا في حكمهم خلال هذه السنة 617هـ كازاخستان وباكستان وأوزبكستان وأفغانستان وتركمانستان وأجزاء ضخمة جدًا من إيران شمال وشرق وغرب إيران وأذربيجان كلها، وأرمينيا ولم تكن مسلمة كانت نصرانية، والكورج دولة جورجيا الآن، والشيشان ودىخستان وجنوب روسيا، كل هذا في عام واحد.

الاجتياح التتري البربرى

دموية التتار شديدة تجعل من السهل أن نذكر أن التتار ما دخلوا بلدًا إلا وقتلوا كل سكانها؛ رجالاً ونساء وأطفالاً، محاربين ومدنيين، كل شيء يقتل، يأخذ البلد بكل ثروتها، ويزيح السكان من طريقه.

من أشهر الأمثلة غزو مدينة (مروى) الإسلامية التي كانت من حواضر العلم والثقافة والاقتصاد، وهي تقع بين التركمانستان وإيران، وهذه المدينة سكانها كانوا 900 ألف، 200 ألف خرجوا لمحاربة التتار وفروا عن آخرهم، ودخل التتار وحاصروا المدينة وأعطوا الأمان لأهلها، وخرج أهل المدينة بعهد الأمان، لكن التتار كالعادة خانوا العهد وسفكوا دم 700 ألف، قتلوا المدينة كلها ولم يبق بها حي واحد. واختفت (مروى) ولم يعد لها وجود حتى على الخريطة، وهكذا أكثر من مدينة.

والttar لم يكتفوا بغزو العالم الإسلامي فقط، لكن جاؤزوه بعد ذلك إلى أوروبا؛ لهذا أقول: إن المعاناة التي عانى منها الناس ليست معاناة إسلامية فقط، لكنها معاناة إنسانية عالمية من جيوش التتار.

ودخلوا على أوروبا في الثلاثينيات من القرن السابع الهجري من 629 إلى 634هـ، اجتاحوا كل روسيا 17 مليون كيلو متر مربع، سقطت كلها ودمرت موسكو عن آخرها، وجاؤز تركيا على أوكرانيا ودمروا كيف العاصمة، ثم اتجهوا إلى بولندا، وتعاون ملك بولندا وملك ألمانيا لحرب التتار، فسحق الجيش البولندي والألماني، وانتقلوا إلى المجر وكرواتيا، ووصلوا إلى ساحل البحر الأدربياني، نصف أوروبا الشرقية كله تحت حكم التتار، وأصبحت دولة التتار سنة 639هـ تصل من كوريا شرقاً إلى بولندا غرباً، كل آسيا ونصف أوروبا.

وبعد ذلك وفي سنة 656هـ استطاعوا إسقاط الخليفة العباسية وقتل الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين، وبذلك سقط الكيان الذي جمع الأمة الإسلامية أكثر من 500 سنة وأكثر، وعندما دخلوا بغداد قتلوا مليون مسلم، وسكان بغداد في ذلك الوقت 3 ملايين، قتلوا ثلث السكان وكانت أكبر مدينة في العالم، وبعد موقعة التتار اختفى ذكرها من الكتب ولم يعد إلا في القرن العشرين؛ لأن بغداد أصبحت مدينة لا وزن لها، إذ إن معظم السكان ماتوا ومعظم عمالقة الشعب ماتوا، العلماء الفقهاء الحكام الأمراء الوزراء المفكرون، كل من له رأي أو قول في بغداد قُتل في البداية، إضافةً إلى تدمير الثروات والقصور والديار، وأشهر ما دمر في بغداد هي المكتبة عندما ألقوا بعصارة فكر الإنسانية كلها في نهر دجلة؛ ليختفي بذلك كم هائل من العلوم ليس في علوم الشريعة فقط، لكن في كل مجالات الحياة علوم فقه وتفسير وأخلاق وعقيدة، إضافةً لعلوم الطب والفلك والهندسة وكيمياء وفيزياء وجغرافيا وكل علوم الحياة.

قطز.. وبناء الأمة

لم يتخيّل أحد أن مصر ممكّن أن تقف أمام هذا الكائن الضخم، لكن قطر - رحمة الله- بدأ بسياسة في منتهى الروعة في تأهيل الوزراء والأمراء والجيش والشعب لهذه الموقعة، وكل التأهيل والوقت كان عشرة أشهر فيها وجه الشعب إسلامي واضح.. جعل القضية قضية إسلامية في المقام الأول، يصرف فيها المسلم دمه وروحه وما له من أجل الله عز وجل، وكل القتال الذي سبق وسقوط المسلمين كان لأن المسلمين كانوا يدافعون عن دنياهم ولا يدافعون عن دينهم، حتى الشعوب نفسها لم تكن في ذهنها قضية الدين، وقطر - رحمة الله- بدأ يعيد الناس مرة أخرى إلى الله سبحانه وتعالى، وكان كل هدفه قتال هؤلاء الذين احتلوا نصف العالم تقريباً في سنوات معدودات، ويستكملون النصف الآخر إذا ما سقطت مصر؛ لأن مصر بوابة إفريقيا.

وقطر بدأ ينمي فيهم الروح والحمية وحرك في الناس روح الإيمان، وكان للعلماء دور مهم في مصر.. وأعطى للأزهر وعلمائه دوراً كبيراً جداً، وكان على رأس العلماء العز بن عبد السلام سلطان العلماء الذي كان يحب قطر حباً شديداً جداً، ويرى أنه أفضل المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز.. وبدأ العلماء يقومون بدورهم نحو الشعب، وبدعوا يرفعون قيمة الجهاد في سبيل الله، الكل يسعى للجهاد والشهادة.

وبعد هذا، قام قطر بشيء مهم جداً، ألا وهو القدوة، لم يجلس قطر في قصره الآمن يحرك الجيوش وهو بمعزل عن الخطر، لكنه فعل مثلما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل، كل شيء بيده قبل يد الصحابة.. هكذا فعل قطر أول ما صعد لكرسي الحكم قال: لم أصعد لهذا الكرسي إلا لقتال التتار. وقال كلمة جميلة: أنا ألقى التتار بنفسي. وكان قطر أول من يسمع لكلام العلماء: لذا وافق العز بن عبد السلام عندما رفض فرض الضرائب على الشعب لتجهيز وإعداد الجيش إلا بعد أن ينتهي المال من بيت المال ويرد الوزراء والأمراء الأموال التي أخذوها من بيت مال المسلمين، وعندما سمع قطر تلك الفتوى قال: أنا أول من يفعل ذلك. ولم يُبْقِ في بيته شيئاً إلا الفرس والسلاح.

لم يكن قطر لديه مطعم في حكم سلطان.. شاب صغير لم يبلغ من العمر 35 عاماً على درجة عالية من الفقه والعلم والدرائية، ولم يفكر في شيء من متع الدنيا، ولم يطلب سوى الآخرة بوضوح.. بعد ذلك خطأ قطر خطوة رائعة في تاريخ الإنسانية؛ لأنه بدأ يوحد الصف مع المسلمين الذين كانوا على خلاف شديد معه قبل ذلك.. نسي كل ذلك، ووضع يده في يد المماليك البحريية التي تتبع نجم الدين أيوب، والتي كان على رأسها الظاهر بيبرس، وكان هو على رأس المماليك المعزية التي تتبع عز الدين أيوب، وكان بينهم خلاف وصراع شديد.

نسي كل الخلافات، وأصدر عفواً حقيقياً عن المماليك البحريية، وطلب منهم تكوين جيش واحد لمحاربة التتار، ووضع على رأس الجيش المصري (فارس الدين أقطاي الصغير)، وهو غير أقطاي الذي قتله مجموعة من المماليك المعزية، وليس قطر كما يدعون. وللعلم والتاريخ فإن بيبرس أيضاً لم يقتل قطر، وغير ذلك تزوير في التاريخ، ومحاولات لتشويه الرموز الإسلامية الكبرى.

المهم أن قطر بعد ذلك وحد مصر مع الشام، رغم أنهم كلهم كانوا خونة وعملاء؛ الناصر يوسف الأيوببي حاكم دمشق كان يوالى الصليبيين مرة والttar مرة أخرى، ورغم هذا طلب منه وحدة الأمة تحت رئاسته، رغم أن قطر كان في موقف قوة، وأرسل له كلمات جميلة جداً "إن اخترتني خدمتك"، وهذا تجرد ورقي في الأخلاق.. وأرسل قطر للمغيث فتح الدين عمر أمير الكرك -في الأردن الآن- وللأشرف الأيوببي أمير حمص الموالي للttar، ولأمير حماة، ولأمير بانياس.. أرسل لأكثر من منطقة من مناطق الشام لتوحيد الصف، منهم من رفض ومنهم من جاء.

المهم أنه في النهاية كون جيشاً من المسلمين المصريين والشامييين، وأهل

فلسطين بعد ذلك انضموا للجيش لحرب التتار، واختار مكان الموقعة في فلسطين، مع أن كل الأمراء رفضوا أن تكون الحرب في فلسطين، لكن قظر -رحمه الله- حَوَّل الامر إلى قضية إسلامية، إضافةً إلى بعد الأمني القومي لمصر من الناحية الشرقية.

ولا يمكن لمصر أن تقبل بوجود عدو قوي يحتل فلسطين وتبقى هي في أمان، بالتأكيد أنها يمكن مهدداً، وهذا مثل الوضع الذي نعيشه الآن.. وقصة التتار شديدة التشابه مع واقعنا المعاصر؛ لذا دراستها بنوع من التركيز أمر في غاية الأهمية.. المهم وحد قظر الجيوش وخرج بها، وختار مكان الموقعة في عين جالوت، ورتب جيشه ترتيباً محكماً، وأعد العدة بشكل في منتهى الروعة عسكرياً وتنسيقاً للجيش ومن ناحية الخطة، وسبق لمكان المعركة قبل جيش التتار، وبالفعل التقى مع جيش التتار يوم 25 رمضان سنة 658هـ في موقعة من أشرس المواقع في تاريخ البشرية.

المصدر:

١. راغب السرجاني، بين التاريخ والواقع، ج ١، ص ١٠٧

الكلمات المفتاحية:

#راغب-السرجاني #عين-جالوت

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.